(رَحِمَكَ اللَّهُ): يدْعُو بالرَّحْمَةِ للمُتعلِّمِ، وَهَذَا صَنِيْعُ أَهْلِ العِلْمِ والفَضْلِ، يرجُونَ الخَيْرَ لجَمِيْعِ عبادِ اللهِ، وخاصّةٍ الطَّائعِيْنَ مِنْهُمْ.

علاقةُ العلمِ بالرحمةِ في قول المصنف (اعْلَمْ رَحِمَكَ اللَّهُ) :

هناك مناسبةٌ بين العلم والرحمة؛ فكلَّما كان الإنسانُ صاحبَ علمٍ راسخٍ، ازدادت الرحمةُ في قلبهِ عَلَى عباد الله، وكلَّما ضعُفَ العلم، كان القلبُ قاسيًا؛ فلابُدَّ أن يتحلَّى طالبُ العلم بالرفق والرحمة بالآخرين؛ حتى لو كانُوا عصاةً مخالفين .

ولكن إذا كان العبدُ جاهلاً بدينهِ، ضعيفَ العلم؛ ستجد فيه قسوةً وإنكارًا شديدًا على العُصَاة وكل من يخالفهُ.

الفرْقُ بين إنكارِ المعصيةِ والشِّدَّة:

هناك فرقٌ بين إنكَارِ المعصيةِ وبغْضِها في الله تعالى، وبيْنَ الشِّدَّةِ عَلَى أصحابِ المعَاصِي والمخَالِفِيْنَ؛ فنحنُ ننكر المعصية، ولكن لماذا يلزم البعض الشِّدَّة – المنفِّرة – ؟!! فإمامُ المرسلين ﷺ؛ قال (له) الله تعالى: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ [آل عمران:١٥٩].

لقد كان رسولُ الله ﷺ أكثرَ الناسِ رحمةً بعبادِ اللهِ تعالى؛ وتَشْهدُ له بذلك أفعاله وأقواله؛ كما جاء في السنة مما يدلُّ على ذلك، مع قوة حبِّهِ لله ولدينهِ، ولكنه إذا رأى مخالفَةً، لا يتخلق بتلك الشَّدَّة التي عند كثيرٍ من طلبة العلم اليوم! وكأنَّهم يريدون الانقِضَاضَ عَلَى صاحبِ المعصيةِ، والفتك بهِ؛ رغم أن الطبيبَ إذا دخل عليه مريضٌ؛ اجتهد في محاربةِ المرض لا المريض، ولكن اليوم طالب العلم! يريدُ قتلَ صاحبِ المعصية لا المعصيةَ !! – إلا من رحم ربك –

رحمتُهُ ﷺ بالعصاة:

فالنَّبِيُّ ﷺ كان أفْقَهَ الأمَّةِ، وأعْلَمَهُم باللهِ وبكتابهِ؛ فكَانَ يعامل من يجده عَلَى معصيةٍ برحمةٍ؛ كقِصَّة الأعرابيّ الذي تَبَوَّلَ في المسجد كما في صحيحِ مسلم عن أنسٍ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ؛ فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ؛ فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: مَهْ مَهْ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تُزْرِمُوهُ دَعُوهُ** »؛ فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَاهُ؛ فَقَالَ لَهُ: « **إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ ، وَلَا الْقَذَرِ ؛ إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ** »[1]، أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ: **فَأَمَرَ**

(١) صحيح مسلم (٢٨٥)

رَجُلًا مِنَ الْقَوْمِ فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَشَنَّهُ عَلَيْهِ»، فالصحابة تركوه بأمرٍ من النبي ﷺ حتى قضى حاجته؛ فقد كانَ يَتَبَوَّلُ في المسجِدِ، وهَذَا مِما يُثَيْرُ الغَضَبَ الشديد، ولكِنْ عَلِمَ النبيُّ ﷺ أَنَّهُ جاهلٌ، ولا يَعْلَمُ الحُكْمَ؛ فصَبَرَ عليْهِ؛ حتَّى يُعلِّمَهُ .

وتأمَّلْ كيف علَّم عائشةَ والأمَّةَ كلَّها حُسْنَ الخُلق، والصبْرَ على المخالِفِ؛ كَمَا فِي صَحِيْحِ مسلمٍ [(١)] عَنْ عَائِشَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، عنه ﷺ، أنه قَالَ: « **إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ** ».

وفِي رِوايةٍ: " رَكِبَتْ عَائِشَةُ بَعِيرًا؛ فَكَانَتْ فِيهِ صُعُوبَةٌ، فَجَعَلَتْ تُرَدِّدُهُ؛ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ**» [(٢)]

ولكِن أحوالُنَا اليوْمَ مع المخَالِفِين والعُصَاةِ ليْسَتْ كذلك – إلا مَنْ رحِمَ الله –، فالرحمةُ مطلوبةٌ لأنَّها صفةُ لله، واللهُ يحبُّ صفاتِهِ.

ومن الرحمة أن الرحيم عزَّ وجلَّ يجازِيْك كلَّ خيرٍ؛ فكلُّ ذنب يَغْفِرُهُ، أو يَعْفُو عنه؛ لأننا في حاجةٍ شديدةٍ إلى رحمته في حالنا، وفي مآلنا؛ فنحتاج إلى رحمتِهِ تعالى في الآخرةِ؛ حتى يَغْفِرَ لنا، ويعْفُوَ عنا، ونحتاج إلى رحمتِهِ في الدنيا بوقايتنا من الذنوبَ والمعاصي؛ فنحتاجُ إلى رحمتهِ في كلِّ وقتٍ وحينٍ.

❍ والجزاءُ من جنسِ العَمَل:

فمن كان عندهُ رحمةٌ بعبادِ اللهِ سوفَ يرحمُهُ اللهُ عَزَّ وجلَّ، ومن افتقد الرحمة بالخلق؛ فيجزيه الله بمثل فعله فلا يرحمه الرحمة الخاصة كما يرحم غيره؛ فبِقَدْرِ رحمَتِهِ بالناسِ تكُونُ رحمةُ اللهِ له؛ لقوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: « **ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ** » [(٣)]

وقولِهِ ﷺ: « **وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ** » [(٤)]

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٤)

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٩٤)

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٤١) ، والترمذيُّ (١٩٢٤) ، وأحمد (٢ / ١٦٠) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو به . وهو في " الصحيحةِ " (برقم : ٩٢٥) .

(٤) أخرجه البخاريُّ (١٢٨٤)، ومسلمٌ (٩٢٣) عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ به.

❍ مفْهُومُ الرَّحْمَةِ:

هو أنْ يغفرَ لك ما مضى من الذنوبِ، وفي المستقبلِ يمنعُكَ من الوقُوعِ في الذَّنْبِ، بأَنْ يحُولَ بينك وبينَهُ، وهذه رحمةٌ كبيرةٌ؛ لأنَّك إذا لم تقترفِ الذُّنوب؛ فلن تُكتب عليك السيئات، ولَنْ تدخلَ النَّارَ، كما أنَّ من رحمتِهِ؛ مغفرةَ ذنوبِ العبدِ في الآخرةِ، والعَفْوِ عنهِ.

❍ المَغْفِرةُ والعَفْوُ بيْنَهُمَا تَقَاربٌ فِي المَعْنى:

فالمغفرةُ: أصلُ الكلمةِ من (الغَفْرِ)، والغَفْرُ هو: التغطيةُ والسترُ، يُقَالُ: المِغْفَرُ، وهو الذي يضعُهُ الفارسُ عَلَى رأسهِ في الحرب، واسمهُ مِغْفَرٌ؛ لأَنَّهُ يُغَطِّي الرأس.

❍ مَغْفِرَتُهُ سُبْحَانَهُ وسِتْرَهُ عَلَى العُصَاةِ :

يُذنبُ العبدُ في الخلوات، ولا يُراقبُ نَظَرَ اللهِ إليهِ، وبكَرمهِ وإحسانِه لا يفضحُهُ على الملأ، ولكنَّهُ يسترُهُ؛ لأنه الغفور؛ فكَمْ من عبدٍ أذْنَبَ ذُنُوبًا كثيرةً لو اطَّلع عليْهَا الخلقُ ما استطاعَ أحدٌ النظرَ في وجههِ، ومَعَ كلِّ ذلك؛ فبِكَرم الله وإحسانهِ يعفُو ويغفِرُ ويستُرُ، ولا يفضحُهُ عَلَى رؤوس الخلائق في الدنيا.

❍ سعةُ كرمهِ وجودهِ سُبْحَانَهُ بالعُصَاة التَّائبِيْنَ:

وإذا سَتَرَ اللهُ العبدَ في الدنيا؛ فمِنْ رحمتهِ وسعةِ جودهِ وكرمهِ يستُرُه – كذلك – في الآخرةِ؛ فلا يفضحُهُ؛ فعلى العَاصِي الذِي تاب من ذُنوبهِ أن يَسْتبشرَ، فالذي سترَهُ ومكَّنَهُ من التوبةِ في الدُّنيا ويَسَّرَها لَهُ وثَبَّتَهُ عليها حتَّى الموت؛ لَنْ يَفْضَحَهُ في الآخرة، وذلك لكونه رحيمًا عفوًا غفورًا، وإلاَّ فالعاصي الذي استهانَ بنَظَرِ الله إليه، وتجرَّأَ على معاصيهِ في الخَلَوات، أو في العَلَن يستحِقُّ الفضيحة، ولكنَّه سبحانه وتعالى لم يفضحْهُ؛ بل عاملَهُ بسترِهِ وكرمهِ وفضلهِ، ولم يعاملْهُ بما يستحق، ولو عاملَهُ بما يستحق لفُضِح في الدُّنيا قَبْلَ الآخرةِ.

قال تعالى: ﴿ **رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا** ﴾ [الإسراء:٢٥]، و **(الأَوَّابِينَ)**؛ من: الأوبَةُ، وهِي: الرُّجُوع، ومعنى الآية: إذا كان العبدُ صالحًا، ولكنَّهُ أساءَ وأخطأَ وزَلَّت قدمُهُ في باب معصيةٍ؛ لكنَّهُ رَجَعَ وتَابَ إلى اللهِ، ونَدِمَ عَلَى ما فَعَلَ؛ فسيغْفِرُ لَهُ ربه ويَسْتُرُهُ.

وأمَّا العَفْوُ: فهو أبلغُ من المغفرة؛ لأنَّ أصلَ العَفْوِ: المحو؛ أي: يمحُو السَّيئاتِ، ويتَجَاوزُ عنها، وأما المغفرةُ: فهي السِّترُ عليها، مع وجودِهَا؛ كما في الصَّحيحين [(١)] عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ ابْنَ عُمَرَ، كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي النَّجْوَى؟ قَالَ: « **يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: أَعَمِلْتَ كَذَا**

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٠٧٠) ، ومسلمٌ (٢٧٦٨).

وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، وَيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَرِّرُهُ، ثُمَّ يَقُولُ: إِنِّي سَتَرْتُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ ».

إذَنْ؛ العفو أبلغُ من المغفرة؛ لأنَّ الغُفْرانَ مبنيٌّ على السِّتر، والعفْوُ مبنيٌّ على المحْوِ، والمحوُ أبلغ من السِّتر، لذلكَ كان دعاءُ ليلةِ القدْرِ الذي علَّمه النَّبيُّ ﷺ لعائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قال لها قولي: «**اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي** »[1]

ولم يقُلْ لها؛ قُولِي: اللهُمَّ إنَّك غفورٌ أو رحيمٌ أو كريمٌ! ولكن علَّمَهَا ما نحن في أمسّ الحاجةِ إليه، وهو العفْوُ. فالعَفْوُ مغْفَرةٌ مع محْوٍ للذُّنُوبِ؛ فلا نحَاسبُ عليها يومَ القيامة؛ فهو إزالةُ أثرِ الذَّنبِ.

❐ **قَالَ المصَنِّفُ : (العِلْمُ ، وَهُوَ : مَعرِفَةُ اللَّهِ) .**

📖 **الشَّرْحُ :**

(المعرفةُ والعِلْمُ) مُتَقَارِبَانِ عند عامَّةِ العُلَمَاءِ؛ لكِنْ لا نَصِفُ اللهَ بالمعرفَةِ، وإنَّما نصفه بالعلمِ.

ولماذا لا نَصِفُ اللهَ تعالى بالمعْرِفَةِ ؟

والجوابُ: لأنَّ المعرفةَ تُستعملُ فِيْمَا سَبَقَ تَصَوُّرُه من نسيانٍ، وجهلٍ، وهذا لا يجوزُ في حقِّ الله؛ فنقولُ – مثلاً –: الله يعلمُ أنِّي لا أكذبُ، اللهُ يعلمُ أنِّي صادقٌ، ولكِنْ لا نقول: اللهُ عارفٌ؛ لأنَّهُ منتشرٌ بيْنَنَا قولُ: ربَّنَا عارفٌ، ولكن اللفظةَ الصَّحِيحةَ المنضبطةَ: اللهُ يعلمُ؛ لأنَّ المعرفةَ –كما ذكرنا– يسبِقُهَا تصوُّرٌ، أو نسيانٌ، أو جهلٌ، والله سبحانه وتعالى حاشاهُ أن يَسبِق علمَهُ نسيانٌ أو جهلٌ، أو يلحقهُ نسيانٌ أو جهلٌ؛ فهو العليم له الكمالُ في الصفات، ومن كمال علمِهِ؛ أن لا يسبقَهُ جهلٌ ولا نسيانٌ، ولا يلحقُهُ شيءٌ من ذلك؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم:٦٤]؛ فالنِّسْيَانُ مِنَ الصِّفَات المنفيةِ عنهُ تبارك وتعالى.

❐ **وقَوْلُ المُصَنِّفِ: (مَعْرِفَةُ اللهِ):**

المقصُودُ بالمعرفَةِ – هُنَا –: التوحيدُ والإيمانُ.

---

(١) أخرجهُ الترمذيُّ (٣٥١٣) ، وابن ماجه (٣٥٨٠) ، وأحمد (٢٥٣٨٤) ، والنسائيُّ في " الكبرى " (٧٧١٢) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ عَائِشَةَ به . وهو في " المشكاة " (٢٠٩١) ، و" الصحيحةُ " (٣٣٣٧) ..

❍ الإقرار بوجودِ اللهِ لا يُنَجِّي وحْدَهُ:

فالشيطان علم أن الله موجودٌ، وأقرّ بذلك، ولم ينكره؛ قال تعالى: ﴿ **قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ** (٧٩) **قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ** (٨٠) **إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ** (٨١) **قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ [ص٧٩ – ٨٢].

وكذلك فرعونُ كانَ لا يُنْكِرُ وجودهُ تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ [النمل:١٤]؛ فكَانَ يقولُ: ﴿ **أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى** ﴾ [النازعات : ٢٤]، ولكنَّهُ يعلَمُ مِنْ داخلِهِ أنَّهُ ليس كذلك بدليلِ أنَّهُ حينَمَا كان يَغْرَقُ؛ كما قال تعالى: ﴿ **حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [يونس:٩٠].

وكذلك كفارُ قريشٍ يقرُّون بوجودِ اللهِ، ويعلمُون ذلكَ، وقالُوا على الأصنامِ: ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** ﴾ [الزمر:٣]؛ فهُمْ يعتقدُون أنَّ الأصنامَ وسيطٌ وشفيعٌ لهم تُقَرِّبُهم إليهِ تَعَالَى، ويعلمون أنه هو الخالقُ؛ قال تعالى: ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [لقمان:٢٥].

إذَنْ مجرَّدُ الإقرارِ بوجُودِ اللهِ تعالى لا يُنَجِّي العبدَ، ولكنَّ الذي يُنَجِّيْهِ الالتزامُ بلا إله إلا الله منهجًا وعملاً.

فقد أقرَّ كثيرون بوجودِ الله تعالى؛ حتَّى الشَّيطانُ– كما ذكرَنَا– وكفارُ قريشٍ، وكذلك النصارى واليهودُ يُقِرُّون بذلك، ولكنَّ المطلوبَ: تحقيقُ التوحيدِ بنَفْيِ الشريكِ والنِّدِّ والولَدِ والصَّاحِبَةِ والشُّفَعاء من دون اللهِ، وأمَّا مجردُ الإقرارِ وحده لا يُنَجِّي.

قال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: فَائِدَة: للْإِنْسَان قوتان قُوَّة علميةٌ نظرية، وَقُوَّة عملية إرادية، وسعادته التَّامَّة مَوْقُوفَةٌ على استكمال قوتيْهِ: العلمية الإرادية واستكمال الْقُوَّة العلمية؛ إِنَّمَا يكون بِمَعْرِفَة فاطرِهِ وبارئِهِ، وَمَعْرِفَة أَسْمَائِهِ وَصِفَاته، وَمَعْرِفَة الطَّرِيق الَّتِي توصل إِلَيْهِ، وَمَعْرِفَة آفاتها، وَمَعْرِفَة نَفسه، وَمَعْرِفَة عيوبها؛ فبِهَذِهِ المعارفِ الْخَمْسَة يحصِّل كَمَالَ قوتهِ العلمية[١] .

إذن؛ فالمعارفُ خمسٌ:

١– معرفة فاطرِهِ وبارئِهِ.

---

(١) الفوائد (ص:١٨–١٩).

٢- ومعرفة أسمائهِ وصفاتهِ.

٣- ومعرفة الطرقِ التي توصل إليه ومعرفة آفاتها.

٤- ومعرفة نفسهِ.

٥- ومعرفة عيوبِها.

❶ **فأوَّلاً:** معرفةُ فاطرهِ وبارئهِ، ومعرفةُ أسمائهِ وصفاتهِ أمرٌ في غايةِ الأهميَّةِ؛ فلابُدَّ من معرفة الله بأسمائه وصفاتهِ ومعرفةِ مَنْ هُوَ؛ لأنَّ العبدَ إذا لم يَعْرِفْ ربَّهُ سيتجرَّأُ بالمعَاصِي عليهِ، ولابُدَّ؛ فمن المحال أن يَسْتَقِيْمَ عبدٌ بغَيْرِ معرفةِ ربِّه.

وهناك إشكاليةٌ وهي: أن كثيرًا من النَّاسِ يعلَمُون الشرع ، ولا يعلَمُون المشرّع، وهو الله؛ فتجِدُ العبدَ يصُومُ ويصلّي ويحجُّ ويأتي بالشرائعِ، ولكن حالَهُ مع الله سيءٌ جدًّا؛ فما السببُ؟ لأنَّه لا يعلَمُ من يعبُدُ؛ فَأَخَذَ الشَّرْعَ، وجَهِل قَدْرَ وجلالَ المشرّعِ.

❍ **سببُ وَهَنِ القلب وضعفهِ:**

فقلَّةُ المعرفةِ باللهِ تُوهِنُ الإيمانَ في القلب وتضعِفُهُ، وتجعلُ العبدَ ضعيفًا خاويًا من داخلهِ، يستَزِلُّهُ أيُّ ذنبٍ؛ رغْمَ أنَّه يُصلي ويَصُوم ويقومُ بعباداتٍ كثيرةٍ، وهذا حالُ المسلمين اليوم – إلاَّ من رحِمَ اللهُ –.

فالقلبُ ضعيفٌ رَغْم أنَّ الشكلَ الظاهريَّ يُوحِي بغيرِ ذلك؛ فالأَخُ يُعْفِي لحيتَهُ، ويلبسُ القميصَ، والأختُ منتقبةٌ، ولكن مع الاحتكَاكِ والقربِ تُفاجأ بغيرَ ذلك !! والسببُ هو عدمُ المعرفة بالله، وبأسمائه وصفاته، ومَنْ هُوَ اللهُ الكبيرُ المتعالُ الجبَّارُ القهَّارُ؛ فلابُدَّ من معرفته بصفات الجمالِ، ونعوتِ الجلالِ .

فصفاتُ الجمالِ؛ فيها الرحمةُ والعفوُ والمغفرةُ والوُدُّ؛ فإذا كان العبدُ عَلَى طريقِ الاستقامة؛ فهو يحتاجُ إلى صفاتِ الجَمَالِ؛ كي يَسْتَشْعِرَ رحمةَ اللهِ، رَغْمَ تقصيرِهِ، وعدمِ رضاهُ عَنْ طاعتهِ وأحوالهِ، ولكنَّهُ على الطريق؛ فرحْمَةً بنفسِهِ يُذَكِّرُهَا، ويَقُولُ: اللهُ غفورٌ رحيمٌ، ويُذَكِّرُها بكرمِهِ وإحسانِهِ، وبأنَّهُ تعالى يَقْبَلُ صَلاته، ويَعْفُو عنه؛ فيُؤَمِّلُ العبْدُ نفسَهُ بذلك.

ونعوتُ الجلالِ؛ فيها القُوَّةُ والعظَمَةُ والقَهْرُ والجبروتُ؛ فيخافُ العبدُ عنْدَ المعصيةِ ويَرْجع عنها؛ لأنَّهُ عَلِم أنَّهُ يَتَعَامَلُ مع جبَّارٍ عزيزٍ ذي انتقامٍ.

فإذا فهِم العبدُ ذلك؛ يتذَكَّر عند الطاعةِ رحمةَ الله، وصفاتِ جمالهِ؛ فيَلِيْنُ قلبَهُ، ويرِقُّ، ويطمَئِنُّ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ [الرعد:٢٨].

ويُرزق -كذلك- وَجَلٌ في القَلْبِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ [الأنفال:٢].

فالطُّمَأْنينةُ؛ عِنْدَمَا يتذكَّرُ العبدُ أنَّ اللهَ رحمنٌ رحيمٌ كريمٌ، وبكرمهِ سيغفرُ لهُ ويرحمُهُ ويعفُو عنْهُ؛ فالقلْبُ يطمئِنُّ.

والوَجَلُ؛ عندما تَأمُره نَفْسُهُ أو يُوَسْوِس لَه شَيْطَانُه بالجرأةَ عَلَى مَلِكِ الملُوك، فتذكَّر أنَّهُ – سبحانه جبَّارٌ قهَّارٌ عزيزٌ ذو انتقام، ويتذكر قولَهُ: ﴿ **إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ** ﴾ [البروج:١٢]؛ فيرجِعُ ويخافُ، ويوجِلُ القَلْبُ؛ لذلك لابُدَّ من معرفةِ اللهِ بأسمائهِ وصفاتهِ، وإذا لم تعرفْهُ بأسمائهِ وصفاتهِ؛ فما عرفتَهُ!

❷ وثانيًا: معرفةُ الطرقِ التي توصل إليه، ومعرفةُ آفاتها:

لأنَّ العبْدَ إذا لم يَعْرِفِ الطَّرِيْقَ الموصِلَ إلى اللهِ الذي هُوَ الصراطُ المستقيمُ، سيَضِلُّ وتَزِلُّ قدمُهُ ولابُدَّ، ويحتاجُ العبد في طريقهِ الموصّل إلى اللهِ تعالى؛ قوَّتَيْنِ: قوةِ العِلْمِ، وقوةِ العَمَلِ.

قَالَ ابْنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: السَّائِرُ إلى اللهِ تَعَالَى والدَّارِ الآخِرَةِ؛ بَلْ كُلُّ سائرٍ إلى مقصدٍ، لا يتمُّ سيرُهُ، ولا يَصِلُ إلى مقصودِهِ إلا بقوتَيْنِ: قوةٍ علْميَّةٍ، وقوةٍ عمَلِيَّةٍ؛ فبالقوةِ العلميَّةِ يُبْصِرُ منازلَ الطريقِ، ومواضعَ السُّلوكِ؛ فيقصِدُها سائرًا فيها، ويجتنبُ أسبابَ الهلاكِ، ومواضعَ العَطب، وطرقَ المهالك المنحرفةِ عن الطريقِ الموصلِ؛ فقوتُهُ العِلْميَّةُ كنُورٍ عظيمٍ بيدِهِ يمشِي بِهِ في ليلةٍ عظيمةٍ مظلمةٍ شديدةِ الظلمةِ؛ فهو يُبْصِرُ بذلك النُّور ما يَقعُ الماشِي في الظُّلْمَةِ في مثلِهِ مِنَ الوِهَادِ والمتَالِفِ، ويَعْثُرُ بِهِ من الأحجارِ والشَّوْكِ وغيرِهِ، ويُبْصِرُ بذلك النُّورِ – أيْضًا – أعلامَ الطَّرِيقِ وأدلَّتَها المنصُوبَةَ علَيْها؛ فلا يَضِلُّ عنها؛ فيكْشِفُ له النُّورُ عن الأمرين: أعلام الطريقِ، ومعْطَبِهَا. وبالقوَّةِ العَمَليَّةِ يَسِيْرُ حقيقةً؛ بل السَّيرُ هو حقيقةُ القوةِ العمَلِيَّةِ؛ فإنَّ السَّيْرَ هو عمَلُ المسَافِرِ. وكذلك السَّائرُ إلى ربِّهِ؛ إذا أبصَرَ الطريقَ وأعلامَهَا، وأبْصَرَ المعَاثِرَ والوِهَادَ والطُّرق الناكبَةَ عنها؛ فقد حصل له شطرُ السعادة والفلاح، وبقي عليه الشَّطْرُ الآخَرُ، وهو أن يضَعَ عصَاهُ عَلَى عاتقِهِ، ويُشَمِّر مسافرًا في الطريق قاطعًا منازلها منزلةً بعد منزلةٍ؛ فكلَّمَا قطعَ مرحلةً استعدَّ لقطع الأُخْرى، واستَشْعَرَ القُرْبَ من المنزل؛ فهَانَتْ عليه مشقةُ السفر، وكلَّما سكنَتْ نفسُهُ من كلالِ السَّير ومواصلةِ الشَّد والرَّحيل وعدها؛ قُرْبَ التلاقى، وبرْدَ العيشُ عند الوصول؛ فيحدُثُ لها ذلك نشاطًا وفرحًا وهمةً [(١)].

---

(١) طريقُ الهجرتين (ص : ١٨٣).

توضِيْحُ ذَلِكَ؛ أنَّ القوَّةَ العلميَّةَ: هي التي تُبَصِّرُ العَبْدَ بالطريقِ؛ فالعبْدُ يمْشِي في طريقِهِ، ولا يَعْلَم إِذَا كان هذا هُوَ الطَّرِيقَ الصَّحِيْحَ أم لا.

فمثلاً: إذا كان هناك طالبُ عِلْمٍ لا يعلَمُ إِذَا كَانَ المكَانُ – الذِي يَدْرُسُ فيه منهَجَهُ – صَحِيْحًا، أَمْ خَطَأً؟ أو الذِي يقُولُهُ العُلَمَاءُ عَلَى الفَضَائِيَّاتِ هُوَ الصَّوابُ أَمْ لَا؟

فلَكِي يَعْلَمَ مَا هُوَ الصَّحِيْحُ؛ فإنَّه يَحْتَاجُ إلى قوَّةٍ علميَّةٍ؛ أي: قوةٍ تُبَصِّرُهُ بالطَّرِيقِ، وتجعلُهُ يَعْرِفُ آفاتِه.

آفاتُ الطريقِ:

هناك آفاتٌ تقفُ في طريقِ العبد، وعوائقُ كثيرةٌ تمنعُهُ من الوصولِ إلى اللهِ تعالى؛ كَمَنْ يَسِيْرُ في طريقٍ مظلمٍ؛ فلا يَقْوَى على رؤية شيءٍ بِسَبَبِ الظُّلْمَةِ؛ فربما تَعَسَّرَ في حَجَرٍ أو حاجِزٍ، فيَصْطَدِمُ بِهِ؛ فيموتُ، أو تصدِمُهُ سيارَةٌ مسرعةٌ.

هل أحدٌ يستطيعُ أن يَمْشِي في الطَّرِيقِ المُظْلِم ؟

لا، لأنَّهُ إذا لم يكُنْ فِيْهِ نُورٌ سيَحْدُثُ للسَّائِرِ شَيءٌ ولابُدَّ، وكذَلِكَ الطَّرِيْقُ إلى اللهِ فِيه عوائقُ وآفاتٌ وقُطَّاعُ طرقٍ، ولكي يمُرَّ السَّائرُ من هذهِ الأشياءِ؛ لابُدَّ أن يكُونَ الطَّرِيقُ مُضِيئًا، والنُّورُ هو العِلْمُ الذي يُنِيْرُ الطَّرِيقَ.

صعوبَةُ الطريقِ:

والطريقُ إلى اللهِ لَيْسَ مَفْرُوشًا بِالورُود؛ فكلُّهُ أشْوَاكٌ وعوائقُ وآفاتٌ؛ فَالسَّيْرُ فِيْهِ لَيْسَ سهلاً أو مذلَّلاً، وهذه حكمةُ اللهِ بوجودِ الفتنةِ والابتلاءِ؛ فلِكَيْ يَمْشِي العبدُ في هذا الطريق، ويسلكَهُ جيدًا، ولا تتعسَّرُ قدمُهُ فيه؛ لابُدَّ من النُّورِ، والنُّور هو العِلْمُ؛ أي العِلْمُ بكتابِ اللهِ، وسنَّةِ رسُولِ اللهِ ﷺ وَمَا كان علَيْهِ السَّلَفُ الصَّالحُ، وبدُونِ عِلْمٍ سيَتَعَسَّرُ ولابُدَّ؛ فَقوَّةَ العِلْم إذا ذهبتْ أظْلَمَ الطَرِيقُ، فانتبه!

والمَقْصُودُ بالقُوَّةِ العَمَلِيَّةِ:

أن يكون العبدُ حريصًا على العمل بما يعلم؛ فكلَّما عملتَ بما علِمْتَ رزقَكَ اللهُ عِلْمَ ما لم تعلم؛ فهناك تناسُبٌ بينهما؛ فكلَّما عَمِل بما عَلِم رُزق علمًا – إلى ما لا نهاية –، فكلما زاد العملُ والتقوى والإيمانُ؛ رُزِقَ العلمَ؛ قال تعالى: ﴿**وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ**﴾ [البقرة:٢٨٢]، وكما قالَ أهلُ العلم: العلمُ يَهْتِفُ بالعمل؛ فإن أجابَهُ وإلا ارتحل.

ولكن اعلم أنّه لَا يَملكَ أَحدٌ العلْمَ كلّه؛ فلو عاش المرءُ مئات السِّنين يكون دائمًا في حاجة إلى المزيد من العلم،

وكيف يرتحلُ العِلْمُ ؟

إما بالنسيان الذِّهني، أو بتركِ العَمَلِ بِهِ؛ قال تعالى: ﴿**فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ**﴾ [المائدة:١٣] .

فربما قال أحدُهم: حفظتُ القرآنَ، والآنَ تفلَّتَ مِنِّي، أو حصل له نوعٌ من الفُتُور الشديدِ؛ فيُعْرِضُ قلبُهُ بعد كلِّ ما وصلَ إليه من العلمِ، والسببُ: عدمُ العملِ بالعِلْمِ.

وإذا رَزَقَ اللهُ العبدَ القوَّةَ العلْمِيَّةَ التي يعرِف بها الصَّوابُ من الخطأِ، ويعلم بها البِدْعَةَ من السُّنَّةِ، ويعلم بها أسماءَ الله وصفاتِهِ؛ فيَبْقَى قوَّة العملِ التي لابُدَّ منها، وإلا؛ فإن القُوَّة العِلْميَّة لا قيمةَ لها – حينئذٍ –!

ففي الحديثِ أنَّ أولَ مَن تُسعَّر بِهِ النَّار عالمٌ وشهيدٌ ومتصدِّقٌ؛ فالعالم يقُولُ: « **تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ**»[(١)]؛ فهذا العالم زلَّ في القوَّة العِلْميَّة والعمَلِيَّة؛ في القوة العِلْمِيَّةِ؛ لأنَّه لو حقَّق العِلْم بالله على الوجْهِ الصحيحِ ما رَاءَى بعملِهِ؛ لأنَّهُ يَعْلَمُ أنَّ اللهَ يراهُ مِنْ فوْقِ سبْعِ سَمَوات، ولكنَّهُ لم يحقِّق العِلْمَ على الوجْهِ الصحيحِ؛ فهو أخَذَ صورةَ العِلْمِ فقط، وزلَّ في القوَّة العمَلِيَّة ؛ لأنَّه لَمْ يَعْمَل بِمَا عَلِم.

والعِلْمُ لَهُ صورةٌ وأصلٌ:

فهذا العالم أخذَ صورةَ العِلْمِ، ولكِنَّ أصلَ العِلْمِ لم يصلْهُ، وهناك كثيرٌ من الناس عندهُم علمٌ، ولكن لا يعملُون به؛ لأنَّ أصل العلْمِ لم ينْزِل في جَذْرِ القَلْبِ.

فمن عَلِم أنَّ الله يراهُ من فوق سَبْعِ سموات، ويسمعُ كلامَهُ، ويرى مكانَهُ، وأنَّهُ سيُحَاسَبُ عَلَى كُلِّ كبيرةٍ وصغيرةٍ؛ لكان على وَجَلٍ وخوفٍ وحرصٍ شديدٍ ألاَّ يراهُ إلا فيما يحبُّهُ، ولكن من كان العلْمُ عندَهُ صورةً، ولم يَرْسَخْ في قلبِهِ؛ فتراهُ إذا خلا بنفسه تجرَّأَ عَلَى معاصيهِ؛ لأنَّ حقيقةَ العِلْمِ لم تصلْهُ، وإنما معُهُ الصُّورةُ فقط.

وهذا الحالُ عندَ طائفة من طلبةِ العلمِ لا يستهان بها، فيحفظ (أحدُهم) المتونَ والنصوصَ الشرعيةَ، ويحضرُ كثيرًا من الدَّوْرَات العلميةِ، وغيرِ ذلك، ولكن من الدَّاخل خاوي القلب؛ لأنَّ أمثالَ هؤلاءِ أخذوا صورة العلم، ولم يصلُوا إلى حقيقتِهِ؛ فاهتمُّوا بالصورةِ ولم يهتموا بالحقيقة!!

---

(١) أخرجه مسلمٌ (١٩٠٥) عن أبي هريرةَ به . وفي أولِهِ : " إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ .. " ، وأخرجه الترمذيُّ (٢٣٨٢) ، والنسائيُّ في " الكبرى " (١١٨٢٤) ، وهو في " صحيح الجامع " (١٧١٣) . وفيه : " أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ يَنْزِلُ إِلَى العِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ " . وفيه : " يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ القِيَامَةِ " .

وهذا ربَّما لأنهم لَمْ يهتمُّوا بإسقاطِ العِلمِ عَلَى القَلْبِ والحياةِ والواقعِ.

اهتَمُّوا بحفظِ القرآنِ صورةً – فقط – لا حقيقةً؛ فيحفظون سورةً أو سورتين أو ثلاثةً؛ حتى يختمونَ القرآن، ولكنهم أثنَاءَ الحفْظِ لم يتدبَّرُوا الآيات، ولم يَقِفُوا عَلَى مَعَانِيهَا؛ فيقرَءُون – مثلاً –: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ)** [البقرة : ٢٧٨]، ولم يَسْأَلُوا أنفسَهُم: هل نحن مُتَّقُون بالفعل أم لا؟ هل نَحْنُ من المحسِنين أم لا؟ بل كان همُّهم الحفظَ، وتصحيحَ المخارجِ، وختمَ القرآنِ، وأخذَ الإجازةِ، وتعليقَهَا على الحائِطِ!! فيقَعُون في الرِّياء، والسُّمعة، بل ويبيعُون دينَهُم؛ فأصبح القرآنُ – عند كثيرين – للكَسْبِ والتِّجَارةِ في المآتمِ وغير ذلك !!

وكثيرٌ من هؤلاء يأخذُون بحديثِ: « **خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ** »[(١)]؛ فهذا هو همُّهُم أنْ يحفَظُوا القُرْآن، ويجلِسُوا لتدريسهِ وفقط !!

إنَّ هذا العِلْمَ – عِلْمَ القُرْآنِ، وهو أعظمُ شيءٍ في الدُّنْيَا – حقيقتهُ: أن يحفَظَ العبدُ القرآن، وأنْ يعمَلَ به؛ لكنهم وبرغم هذا العلمُ العظيمُ –لم يفهموه بطريقةٍ صحيحةٍ –؛ فأخَذُوا الصُّورة فقط؛ فلم ينفعْهُم .

وحقيقَةُ العِلْمِ:

أنْ يَنْزِل عَلَى قَلْبِ العبدِ، ولو أُنْزِل عَلَى قلبهِ؛ لظَهَر على جوارحهِ ولابُدَّ؛ فتَظهر التَّقْوَى في الأقوالِ والأفعالِ والحِرْصِ عَلَى رضَا اللهِ ومراقبةِ النَّفْس.... إلى آخرِهِ من المعانِي التي تَدُلُّ على أنَّ حامِل هذا العلم يعمَلُ بِهِ، وهذا لا يستطيعُ أحدٌ إخفاءَهُ عن الناس مَهْمَا حاول؛ لأنَّهُ سيظهَرُ وينكشفُ؛ أعني : تخلُّقهُ بالقرآنِ.

فمن كان ذا صفةٍ سيئةٍ، أو ذَا علْمٍ بلا عَمَلٍ؛ مَهْمَا حاول الظهور في صورةِ شخصٍ فاضلٍ وكريمٍ؛ فلن يستطيعَ ذلك على الدَّوام؛ لأنه في لحظةٍ ستزلُّ قدمُه ويظهرُ ما كان يخفيْهِ؛ **فكلُّ إناءٍ بما فيه ينضحُ**.

إذن؛ المقْصُود بـ: (القُوَّةِ العِلْمِيَّةِ) لَيْسَ حفظَ آياتٍ ومتونٍ فقط، ولكِنْ إنزالُ هذه الآياتِ والمتونِ والأحاديثِ على القلْبِ وعَلَى الجوارحِ.

عيوبُ النفسِ وآفاتُهَا:

لابُدَّ أن يَعْلَم العبدُ عيوبَ نفسهِ، ودائمًا أقولُ: معرفةُ المرضِ نصفُ العلاجِ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا شُخِّصُ مرضهُ سهُلَ علاجُه.

فأولاً: يعترفُ أنَّهُ مريضٌ؛ فيذهبُ إلى طبيبٍ يُشَخِّصُ له مرضَهُ، ويعرفُ ما عنده من داءٍ؛ فيبقى الدواءُ، والله سبحانه وتعالى هو الشَّافي.

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٠٢٧) عَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ به.

أهميةُ دراسةِ أمراضِ القُلُوب:

نحن نحتاج إلى دراسة أمراضِ القلوبِ؛ كي يعلمَ العبدُ عيوبَ نفسهِ وآفاتها؛ من كبْرٍ، أو عجْبٍ، أو استعلاءٍ على خَلْقِ الله، أو حَسَدٍ؛ لأنها قَدْ تكُون الحائلَ الذي يحولُ بينه وبين ربه تعالى.

وإذا لم يستطعِ العبدُ اكتشافَ عيبِ نفسهِ؛ فلْيَجْلِس بين يدي شخصٍ حاذقٍ يخبرُهُ بعيبِهِ؛ سواء شيخًا، أو صاحبَ رأيٍ راجحٍ؛ كي يخبرَهُ بعيبِهِ، وقبل ذلك يتضرَّعُ إلى ربِّهِ؛ ليُبَصِّرَهُ بعيبِهِ؛ لأنَّ العبدَ يمكن أن يبحثَ عن عيبِهِ ويجتهد في البحث، ولا يستطيعُ الوصولَ إليه.

وأنا دائمًا أحبُّ أن أدعو ربِّي؛ فأقول: (اللهم بَصِّرني بعَيْبِي، وانصُرْني على نَفْسِي)؛ أي أعلِمْني بعيوب نَفْسِي، وانصرني عليها؛ لأنَّهُ – أيضًا – قد يُبْصِر العيبَ ولا يستطيعُ الانتصار عليه، وقد لا يبصِرُهُ ويظل – هكذا – بعيبِهِ!

هل يجوزُ دعاءُ اللهِ بأدعيةٍ لم تأتِ في الكتابِ والسنةِ؟

نعم؛ يجوزُ؛ لأنَّ هناك اعتراضًا من (البعض) من أنَّ الأدعيةَ التي لم تأتِ في الكتاب والسنة لا يجوزُ الدعاءُ بها، وهذا غيرُ صحيحٍ، والدليل؛ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ علَّم ابنَ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التشهُّدَ، وقال له في نهايةِ التشهُّدِ: « **ثُمَّ يَتَخَيَّرُ مِنَ الدُّعَاءِ أَعْجَبَهُ إِلَيْهِ، فَيَدْعُو** »[(١)].

نعم؛ الأفضلُ بلا شكٍّ أن ندعُوَ بأدعيةِ القرآن والسنةِ، ولكن إذا جرى على لسانِ أحدٍ دُعاءٌ مَا، يستشعر فيهِ العبوديةِ، ويمسّ ذاك الدعاءُ قلبَهُ؛ فلا مانع من قولِهِ؛ لأنَّهُ قد يقولُ دعاءً يحفظُهُ من السُّنَّةِ، وهو لا يستشعرُهُ، والعيبِ فيهِ هو، وليس في الدعاءِ، قد يكونُ بسببِ كلمةٍ ثقيلةٍ عليه لا يفهَمُها، أو أنه لا يحفظ الحديثَ الذي فيه الدعاءُ، ودعا دعاءً لم يأتِ في الكتاب والسنة، ولكنه حرَّكَ قلبَهُ؛ فهذا يصِلُ إلى الله أكثرَ من الدعاء الذي لا يستشعرُهُ، ولقد كان الصحابةُ يدْعُون بأدعيةٍ لم تأتِ في الكتاب والسنة كذلكَ، وكان السلف يستفتِحُون تصنيفاتِهم بأدعيةٍ كلُّها ليست في الكتاب والسنة، وإن كان الأفضلُ بلا شكٍّ أدعيةَ الكتابِ والسنةِ، مع استشعار القلب لها.

عيوبُ النفس وآفاتُها سببٌ في إعاقة سَيْرِ العبد إلى ربهِ: فبقَدْرِ ما عند الإنسان من عيوبٍ وآفاتٍ بقَدْرِ إعاقته في السَّيْرِ، وكلما ازدادت العيوبُ والآفاتُ ازدادت الإعاقة في السيْرِ، وكلما طَهُر القلب ونُقِّي وكان صافيًا متَّصلاً بربهِ، كان السَّيْرُ أسهلَ؛ فالقلوبُ تحتاجُ إلى إصلاحٍ وتبصرةٍ.

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٨٣٥) ، ومسلم (٤٠٢) عن عبد اللهِ بن مسعودٍ به.

القرآنُ سببٌ في صلاحِ القلوبِ:

فأكثرُ شيءٍ ينتفع به القلبُ في صلاحهِ بلا منافسٍ كتابُ الله؛ فعلى العبد أن يقرأه بتدبُّرٍ وتفكُّرٍ، ثم الدعاء بتضرعٍ وانكسارٍ وذلٍّ أن يُصْلِحَ اللهُ قلبَهُ، والله على كلِّ شيء قدير، ولكن لابُدَّ أن يكون مع الدعاءِ الرغبةُ في الصلاح؛ لأن هناك من يدعو الله، ولكن ليس عنده الرغبةُ القويَّةُ في زوالِ المرضِ من قلبهِ؛ فيدْعُو ويدْعُو، ويكثِرُ الدُّعَاءَ، ولا يُستجابُ له؛ فيصلُ إلى أمْرٍ من اثنين؛ إمَّا أن ييأس، وإما أن يدخُل عليه شبهةُ الجبريَّةِ.

شبهةُ الجبريَّةِ:

هي قولُ المرء: أنا مُجْبَرٌ على ذلك؛ فأنَا أدعُو وأتضرَّعُ، ولا يتغير شيءٌ، يقولُ مثلاً: أنَا أدْعُو الله من سنواتٍ أن يتوبَ عليَّ من الحَسَدِ ولا زلتُ أحسُدُ .. وهكذا !!

فيعتقد أنه مجبورٌ على ذلك المرضِ أو الذنب أيًّا كان نوعُهُ؛ سواءٌ كانَ حسدًا، أو كِبْرًا، أو غفلةً، أو غيرَ ذلك، أو يَيْأس من روحِ اللهِ، وهذا خطأٌ، وذاك خطأٌ؛ فلا نَيْأَسُ من رَوْحِ الله؛ لأنَّ الله تعالى قال : ﴿**وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾ [يوسف:٨٧]، ولا نعتقِدُ أننا مجبُورُون، وننسبُ الظُّلم للهِ؛ فلابُدَّ من الانتباه لذلك.

إذن؛ فلمَاذا نَدْعُو ولا نتغَيَّرُ؟

والجوابُ: بِسَبَبِ أمرٍ من أمريْنِ؛ **إما أنَّ العبدَ** يدْعُو الله ويسألُهُ، ولكن قلبُهُ غافلٌ؛ فيدعو باللسان فقط، **وإما أنَّ العبدَ** من داخلهِ ليس عنده العزمُ على التغيُّرِ؛ فلا يشغلُهُ ذلك، والله يقول: ﴿**أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىَ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** (١٠٩) **لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ [التوبة:١١٠] ؛ أي: لابُدَّ أن يتقطَّعَ العبدُ حتَّى يستجيبَ لَهُ اللهُ ربُّ العالمين؛ فهذا من تحقيقِ العبوديةِ؛ فأنتَ عبدٌ؛ فيجبُ أنْ تقفَ بين يدي سيِّدِكَ وقفةَ العبدِ الذليل أمامَ الملكِ الكبيرِ.

فإذا وقف العبدُ هذه الوقفةَ ودَعَا اللهَ بيقينٍ أنَّهُ اللهُ الواحدُ الأحدُ الملِكُ، وهو العبد الضعيف الذي لا يملك لنفسه موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، وتضرع إليه، وأصرَّ على الدُّعاء، وكرَّرَهُ ، ولم ييأس، ولا يقولُ دعوتُ ولم يُستجبْ لي؛ لأنَّ ذلك من موانعِ الاستجابةِ؛ كما جاء في الحديث: « **يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي** »[(١)]، وبذلك سوفَ يصِلُ – ولابد – لما يريدُهُ بإذن اللهِ.

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٣٤٠) ، ومسلمٌ (٢٧٣٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بِهِ .

❑ قال المصنِّفُ: (ومعرفةُ نبيِّهِ):

📖 الشَّرْحُ:

أنْ نَعْرِفَ أنه رسولُ الله ﷺ، خاتَمُ النبيين، وخيْرُ البرية، وخيرُ البشر وإمامُهُم يوم القيامة، وأفضلُ الأنبياء منزلةً؛ فقد اتخذَهُ الله – عزَّ وجلَّ – خليلاً، ورفعَ درجتَهُ في عِلِّيين، وجَعَل له مكانةً ليست لأحدٍ قبلَهُ، ولا لأحدٍ بعده، وزَكَّاهُ في القرآن في عدةِ مواطنَ:

زَكَّى فؤادَهُ؛ فقال: ﴿ **مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى**﴾ [النجم:١١].

وزَكَّى عقلَهُ؛ فقال: ﴿ **مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى**﴾ [النجم:٢]

وزَكَّى لسانَهُ؛ فقال: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى**﴾ [النجم:٣].

وزَكَّى خلُقَهُ؛ فقال: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [القلم:٤].

وزَكَّى بصرَهُ؛ فقال: ﴿**مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى**﴾ [النجم:١٧].

اعلم أنه لا تنفع الشهادة بدون الإقرار بأنَّ محمدًا رسولُ الله:

فقد رفع اللهُ شأنَهُ، وأعلى ذِكْرَه؛ حتى جعل اسمَهُ مقرونًا باسمه في الشهادةِ في كلمة التوحيد (لا إله إلا الله ، محمدًا رسول الله)، ولا تنفع إحداهما بدون الأخرى؛ فلا تُقْبَل كلمة التوحيد بغير (شهادة أنَّ محمدًا رسولُ الله)؛ لذلك من يقول: إن بعض النصارى يقولُ: (لا إله إلا الله ، وأن المسيح ليس ابنًا لله) !! أقول له: حتَّى لو ثبتَ هذا؛ فإنه لا ينفعُهُ ؛ لأنَّهُ لابد أن يُقِرَّ بأنَّ محمدًا رسول الله؛ فإذا أقرَّ أنَّ: (محمدًا رسولُ الله) دخل في الإسلام، وحينئذٍ وجَبَ عليه أنْ يلتزم بشرائعه.

عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»[(١)] .

واعلم أنه ليس ثَمَّ أحدٌ من النصارى يعتقد أنَّ (اللهَ) واحدٌ، وهذا الكلام يقوله (البعْضُ !) منهم تقيَّةً ! فانتبِهْ.

وأيضًا يُرْفَعُ (الأذانُ) ، وفيه اسمُ النَّبِيِّ ﷺ، وأيضًا؛ في الصلاة – نقول في التشَهُّد –: (أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبدُهُ ورسوله).

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٣).

ومن تزكية الله له في القرآن أيضًا أنَّهُ نادَى جميع الأنبياء بأسمائهم؛ إلاَّ النَّبِيَّ ﷺ،ما نادَاهُ اللهُ إلا بالرسالة والنبوة والوصف، وما ناداه قطُّ باسمه مجردًا في القرآن، إلا مرَّةً حتى يُعرِّفَ أهلَ الكتاب وغيرَهُم أنَّ اسمَهُ موجودٌ في القرآن، وإلا ففي القرآن: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ**﴾، و﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ** ﴾، ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ**﴾.

وأعطاه اللهُ الشفاعةَ الكُبْرى، فيشفع في أهل الموقف؛ حتى يُقْضى بينهم بَعْدَ أن يتراجع الأنبياءُ: (آدمُ، ونوحٌ، وإبراهيمُ، وموسى، وعيسى ابنُ مريمَ) عن الشفاعة؛ حتى تنتهي إليه ﷺ، وما قال سبحانه "لعمرك" لأحد قط إلا للنبي ﷺ، قال تعالى: ﴿**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ [الحجر:٧٢]، إلى غير ذلك من الأشياء التي تدل على مكانته وقدره عند رب العالمين. فمنزلة النَّبِيِّ ﷺ عظيمةٌ جدًّا؛ لكن قد تخفى – على وَجْهِ التفصيل– على كثيرٍ من المسلمين.

الإيمانُ بالنَّبِيِّ ﷺ يستوجب الطاعةَ والاتباعَ :

لابُدَّ أن نعلم أن الإيمانَ بالنَّبِيِّ ﷺ يستوجبُ الطاعة والاتباع، وإن لم يطعْهُ العبد ويتبعْهُ؛ لن ينفعُه قولُه: (محمَّدٌ رسولُ اللهِ) تمام النفع، وهو دائم المخالفة له في كل صغيرة وكبيرة، ويبتدعُ في دين الله، ويُحْدِثُ أشياء ما أنزل الله بها من سلطان؛ قال تعالى: ﴿**فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا**﴾ [النساء:٦٥]

سببُ نزولِ هذه الآيةِ :

ما رواهُ الشَّيخانِ في صحيحيهما، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ حَدَّثَهُ: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ خَاصَمَ الزُّبَيْرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فِي شِرَاجِ الحَرَّةِ، الَّتِي يَسْقُونَ بِهَا النَّخْلَ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: سَرِّحِ الماءَ يَمُرُّ، فَأَبَى عَلَيْهِ ؟ فَاخْتَصَمَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلزُّبَيْرِ: « اسْقِ **يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ أَرْسِلِ المَاءَ إِلَى جَارِكَ** »، فَغَضِبَ الأَنْصَارِيُّ؛ فَقَالَ: أَنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ؟ فَتَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: « **اسْقِ يَا زُبَيْرُ ، ثُمَّ احْبِسِ المَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الجَدْرِ** »، فَقَالَ الزُّبَيْرُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَحْسِبُ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ: ﴿**فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ**﴾ [النساء: ٦٥] (١) .

لقد اعترض هذا الرَّجُلُ (الأَنْصَارِيُّ) عَلَى أنَّ الزبيرَ ﷺ يَسْقِي أرضه – أولاً –، ثمَّ يُسَرِّحُ له الماء، رَغْمَ أنَّ الماءَ في الأصل في أرضِ الزبير؛ فتخاصما إلى النَّبِيِّ ﷺ؛ فلما حكم، فقال النبي ﷺ للزبير: اسق، لأنه كان ليس له حقٌّ،

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٣٥٩) ، ومسلمٌ (٢٣٥٧).

ولكنه ﷺ من باب الإحسان؛ قال للزبير: اسْقِ، وأرسِلِ له الماء، فاعترض الأنصاريُّ على حكمه ﷺ، وقال لأنَّهُ ابنُ عمتك حكمت بذلك؛ فكأنه اتهم النبيَّ ﷺ بعدم العدل؛ فلما تجرَّأ هذا (الأنصاريُّ) على النَّبِيِّ ﷺ، وقال هذا القولَ؛ نزلت هذه الآية؛ فنفى الإيمان، ولكن ليس المعنى: نَفْيَ الإيمانِ بالكلية؛ لأنَّ المعْنَى لو كان كذلك، كان كلُّ مَنْ لم يُحكِّم النبي ﷺ في مسألة حُكِمَ عليه بالكفر، وهذا ليس صحيحًا، ولم يقُلْ به أحدٌ من أهل السنة؛ إنما نَفْيُ الإيمان في الآيةِ بمعْنَى: نَفْي كمالِ الإيمان.

لا يجتمعُ الإيمانُ في القلبِ مع مخالفةِ النَّبِيِّ ﷺ:

فلو اكتمل الإيمانُ ما استطاعَ العبدُ مخالفة النَّبِيِّ ﷺ، فلو رَسَخَ في قلبِهِ حقيقةُ الإيمان ما استطاع مخالفته ﷺ، ولكن يخالفُهُ بضعْفِ إيمانِهِ؛ لذلك نزلت هذه الآية: ﴿**فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ**﴾ [النساء: ٦٥]؛ فتحكيم النبيِّ ﷺ في جميع أحوالنا وأقوالنا وأفعالنا واجبٌ، والدليلُ؛ قولُهُ تعالى: ﴿**وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ**﴾ [المائدة:٩٢].

وقوله: ﴿**مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا**﴾[النساء:٨٠].

وقوله: ﴿**قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ**﴾ [النور:٥٤].

وقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾ [النساء:٥٩]، والآياتُ في ذلك كثيرةٌ – جدًّا – يضيق المقام لذكرها.

ماذا لَوْ حَكَّمْنَا كِتَابَ اللهِ وسنَّةَ رسُولِ اللهِ ﷺ؟

لو كان العبدُ مؤمنًا بالله واليوم الآخر، ووقعت مشكلةٌ بينه وبين أيِّ أحدٍ، ورجَعَ إلى ما قال اللهُ في ذلك، وما قالَ رسولُه ﷺ؛ لهدأ واستقرت نفسه، وما وُجِدت خلافات ومشادات بين المسلمين؛ فلو حكَّمنا كتابَ الله تعالى، وسنَّةَ رسولِ الله ﷺ في أحوالنا ما وُجِدت محاكمٌ، ولا قضايَا – بهذه الكثرة – ولا رأينا هذه الغابةَ والصراعاتِ التي نعيشُ فيها، وأنتَ قلَّما تَجِدُ (الآن !!) عائلةً أو أسرةً ليس بينها مشاكلُ وقضايَا، والسَّبَبُ هو عدمُ تحكيمِ الكتاب والسنة في حياتنا !!

فلكي نتغلب على تلك المشكلات لا بد من الرجوعِ إلى كتابِ الله تعالى وسنةِ نبيِّهِ ﷺ، ولو رجعنا لحُلَّت قضايَانَا بسهولةٍ ويُسْرٍ، ولكن كلُّ ما نحن فيه من صراعاتٍ ومشاكلَ وقضايا سببها تحكيم العقل والهوى..

التحذيرُ من مخالفة النَّبيِّ ﷺ:

قال تعالى: ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [النور:٦٣]؛ فإياك أن تخالف أمْرَ النبيّ ﷺ على وجهِ العنادِ؛ وربما وقعت مخالفته على وجه الضعْفِ؛ لأنَّك بَشَرٌ؛ فقد تَضْعُفَ أمامَ شهوتك ومعصيتك، ولكن إن خالفتَهُ على وجه العناد والإصرار في الأوامر الواجبة؛ فأنت على خطرٍ عظيمٍ، وأما في الأمور المستحبة؛ مثل : أذكارِ النوم، أو صيام الاثنين والخميس، وغير ذلك؛ فتركها هو ترك لفضلٍ عظيم، لكِنْ صاحبُهَا لا يأثم.

وقوله: ﴿ **عَنْ أَمْرِهِ** ﴾؛ المرادُ بالأوامر – هنا – : الواجبات؛ كأمْرٍ جاءَ في القرآن، والنَّبِيُّ ﷺ بَلَّغ به الأمَّةَ، أو أمْرٍ جاء في السُّنَّةِ؛ فإيَّاك أن تخالفَهُ فيه، مثلُ: تحريم الربا فيخالف الرجل ويتعامل بالربا، وتحريم الرشوة فيخالفه ويرتشي، وتحريمه العقوق فيخالفه ويعق والديه وهكذا، وكذلك المرأة تخالفُهُ وتَتَنَمَّصُ، وتخالفه وتسافر بغير محْرَمٍ أو غير ذلك؛ فلْنَحْذَرْ من ذلك؛ لأنَّهُ سَيَحْدُث للمخالفِ شيءٌ من اثْنَيْنِ؛ إما أنْ تُصِيْبَهُ فِتْنَةٌ، أو عذابٌ أليمٌ، قال الإمام أحمد – رحمه الله – : " الفتنةُ : الشِّرْكُ ".

ومع كلِّ هذه الخطورةِ؛ فقليلٌ من يتكلَّم ويتحدَّثُ عن السنةِ والبدعةِ.

ولا أحد يلتفت إلى خطورةِ مخالفةِ النَّبيِّ ﷺ، وخطورة ترك الاتباع؛ فالمسألة خطيرةٌ – جدًّا –.

فمن معرفة النبي ﷺ أن يعرف العبد أنّه ﷺ أمر بأوامر؛ وعلى الجميع التزامها؛ قال تعالى: ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ**﴾ [التغابن:١٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قال: « **كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى** »، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: « **مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي؛ فَقَدْ أَبَى** »(١)

❑ قَالَ المُصَنِّفُ: (وَمَعْرِفَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ بِالْأَدِلَّةِ):

📖 الشَّرْحُ:

الإسلام إذا أتى بالمعنى المطلق في القرآن؛ فالمراد به: التعبُّد لله بما شرَعَ منذُ أنْ أَرْسَلَ اللهُ الرسل إلى أن تقومَ الساعة.

فالشَّرعُ في زمن نوح عليه السَّلامُ هو التوحيد والإسلامُ؛ فمن آمن به أصبح مسلمًا، وفي زمن موسى عليه السَّلامُ التوراة، ومن آمن به أصبح مسلمًا، وهكذا.

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٧٢٨٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ به.

فالذين اتبعوا نوحًا عليه السَّلامُ في زمنه مسلمون، وكذلك الذين اتبعوا موسى عليه السَّلامُ في زمنه مسلمون، وكذلك الذين اتبعوا عيسى عليه السَّلامُ في زمنه مسلمون؛ فالإسلام هنا بمعنى: الاستسلام؛ كمعنى لُغَويٍّ.

الدينُ عند الله الإسلام:

فدينُ الأنبياءِ والمرسلين هو الإسلام، ولكنه بعد بَعْثَةِ النبي ﷺ لا يجوزُ أن أقولَ: سوف أتعبَّدُ لله بشريعة موسى، أو بإنجيلِ عِيْسَى عليهما السلامُ؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ أرسل النبيَّ ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، ونسخ جميع الأديان السابقة.

فالدينُ واحدٌ؛ قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ** ﴾ [آل عمران:١٩]؛ فلا يصحُّ أن يتديَّنَ أحدٌ بغير دين الإسلام، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ** ﴾ [آل عمران:٨٥].

فالإسلام بالمعنى العام هو التعبُّدُ إلى الله بما شرَعَ؛ كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿ **رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ** ﴾ [البقرة:١٢٨]؛ أي: مستسلمين لأوامرك نتعبَّد إليك بما شرَّعتَ.

تكفيرُ العلماء لمن أنكر شيئًا في الدين معلوما بالضرورة:

ومن أجل ذلك؛ أجمع العلماء أنَّ مَنْ آمَنَ بشيءٍ من دين الإسلام، وترك شيئًا لم يؤمن بهِ؛ فهو كافرٌ؛ كمن آمن بالقرآن، أو بالصلاة، أو الصيام، والحج، والزكاة، ولكنه أنكر البَعْثَ؛ فقد كفر، أو أنكر وجود الجنة والنار؛ فقد كفر؛ فأيُّ شيء ينكره مما هو معلومٌ من الدين بالضرورة هو من الكُفر؛ لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا** ﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

فلا ينفع العبد الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه؛ بل لابد من الإقرارِ بجميعِ الشَّرعِ؛ قال تعالى: ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾ [البقرة:٢٠٨]؛ أي: اعمل بكلِّ شرائع الإسلامِ.

❐ قال المُصَنِّفُ: (الثانيةُ: العَمَلُ بِهِ):

📖 الشَّرْحُ :

سبقَ، وأن تكلَّمْنا عنِ العَمَل وأهميته.

❐ قال المُصَنِّفُ: (الثالثةُ: الدَّعوةُ إليهِ):

🕮 الشَّرْحُ:

أي: الدعوة إلى ما جاء به النبيُّ ﷺ؛ قال تعالى: ﴿ **ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ [النحل:١٢٥].

والدعوة قد تكون بـ : (**الفعل**) ؛ أي: بهَدْيِك، وسَمْتِك، وحسْنِ خُلُقِك؛ إن شئتَ قلتَ: دعوة عمليَّة؛ كما كان حال الصحابة ومن تبعهم بإحسان؛ فالامتثال بالطاعة في الظاهر والباطن دعوةٌ.

ودعوة بـ : (**القول**)؛ أي: باللسانِ، بذكر محاسن الشريعة عن طريق الدعوة الفردية، أو عن طريق إلقاء المحاضرات.

وقد تكون الدعوة بـ : (**القَلَمِ**)، عن طريق تصنيفِ الكتب، أو إرسال الرسائل الدعوية عَبْرَ وسائل الانترنت الحديثةِ، وغير ذلك.

مراتبُ الدَّعْوةِ ثلاثةٌ:

١- الحكمة.

٢- والموعظة الحسنة.

٣- والمجادلة بالتي هي أحسن.

❶ ومعنى الحكمة في الدعوة:

هي: معرفة حال المُدْعِوين، مع التدَرُّج معهم في الدعوةِ، فإذا كان المدعُوُّ كارهًا لدين الله، ولديهِ صورةٌ أخذها من الإعلام! عن المتديِّنين المتمسِّكين أنهم مجرمون وقتلة، وغير ذلك، وأتى إليك وهو لا يعلم شيئًا عن دينهِ؛ فأول شيء تبدأُ بهِ معه تغييرُ الصورة التي أخذها عن طريقِ هذه الوسائلِ السَّيئةِ عن أهل الحقِّ.

وكمثالٍ آخرَ: أنْ يأتي رجلٌ يتعاملُ بالربا، ويرتشي، وعنده من المعاصي ما الله به عليم، ويصدِّقُ كلَّ ما يقالُ في الإعلامِ الفاسدِ على أهل الفضيلةِ والدين؛ فمن الحكمة والذَّكاء والفطنةِ (أولاً) أنْ أُغَيِّرَ له هذه الصورةَ التي أخذها عن المستقيمين، وأُكرمهُ، وأُقدِّم له الهدايا؛ حتى أستطيعَ أن أُغَيِّر له الصورة بالمعاملة الحسنة قبلَ أن آمُرَهُ بأيِّ شيءٍ؛ لأنه جاءَني وهو خائفٌ؛ فلن يسمع مني شيئًا، وأيُّ كلام أقولُهُ له ، يمكن أن يحملَهُ على محملٍ سيئٍ في الغالب، فلابُدَّ من الحكمة والحِنْكَةِ في دعوتهِ؛ لأنني قد أكونُ سببًا في صدِّهِ عن الدين وإعراضهِ !!

البدْءُ بالأهمِّ ثم المُهِمُّ في الدَّعْوَة:

فما دام أتى لي؛ فينبغي أن يكون عندي حكمةٌ في الموعظةِ؛ فأولاً: أزيلُ الصورةَ الضبابيَّةَ التي عنده تجاهَ أهل الحقِّ برفقٍ ولينٍ، ثم أعلِّمُهُ الأهمَّ فالمهِمَّ؛ فأبدأُ معه بالصلاة والمحافظةِ عليها، ويمكن مساعدتُهُ بإيقاظهِ وتنبيههُ وقت الصلوات، ومعاملته برفقٍ ولين وهكذا، ثم أحثُّهُ على النوافلِ، والسنن؛ وأبيِّنُ أهمية السننِ، أنه بها تكملُ الفرائضُ؛ لأنه يوم القيامة سوف يحاسبنا الله على ما عقَلْنَاه من الصلاة، وصعب أن يعقِلَ أحدٌ كلَّ الصلوات بخشوعها

وركوعها وسجودها؛ فأقوي عزيمتهُ بذلك على الإتيان بالسننِ، ثم أحُثُّهُ على الأذكار وأحبِّبُهُ فيها؛ كأذكار الصباح والمساء، وأقولُ له: إذا قلت تلك كانت لك حرزا من الشيطان، ويحفظك الله، ويحفظ بيتك وأولادك؛ فاذكُرْ له الأجرَ الدنيويَّ أولاً؛ لأنه مازال متعلقًا بالدُّنْيَا؛ فلا يقال له أولاً: ستأخُذُ مائةَ حسنةٍ، ويُمحى عنك مائةُ سيئةٍ وتقفُ !! لأنه يريدُ تأمينَ دُنْيَاهُ (أولاً)، ثم آخرتَهُ؛ لأنَّهُ لم يَصِلْ إلى مرحلةِ إيمانيَّةٍ قويَّةٍ بأنَّ الآخرةَ أهمُّ من الدُّنْيَا، ونحْنُ كنَّا كذلك؛ قال تعالى : ﴿**كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾ [النساء:٩٤]؛ فلا نتعالى عليه؛ لأننا كنَّا كذلك في يومٍ من الأيام، ولكننا نَنْسَى ؛ فأعْلِمْهُ أنَّ دنياهُ التي يحبُّها لن تضيعَ منه أيضًا، وهذا حقيقيٌّ؛ لأنَّ الدين لا يمنعُ الدنيا، وهكذا الدعوةُ تكون بـ : (حكمةٍ)، وهي أن تَبْدَأَ بالأهمِّ ثم المهِمُّ .

والموعظةُ الحسنةُ:

فطالبُ العلم الذي يحبُّ العلم، ويأتي لكي يتعلمَهُ؛ فلابد أن يتعامل بالحسنى؛ فيكون الداعي هينًا لينًا مع المخالف، ولا ينظر إليه نظرةَ احتقارٍ ونقصٍ، وأنَّهُ أقلُّ منهُ؛ لأنَّهُ يصل إليه ذلك، ويشعرُ بِهِ؛ حتى وإن ابتسمْتَ له وأنت تنظر إليه، وإذا وصل إليه ذلك؛ فلن يستمع لك وستفقده؛ فلا تنظر إليه نظرةً بها جلدٌ؛ فرحمةً بعباد الله، وتذكَّرْ أنك في يومٍ من الأيام كنت كذلك، وتذكَّرْ أنك يمكن أن تعود لذلك؛ فلا أحد يأمنُ على نفسه؛ فأنت اليوم واقفٌ على الحق، ولكن لا تعلم ماذا سيحدث لك غدًا ؟!!

فنحن نسمع كلَّ يوم عن أناسٍ يرجعون لطريقة الغواية بعد ما وصلوا إليه من العلم؛ فنسمَعُ عن إخوةٍ من طلبة العلم انتكسُوا بعد التزامٍ دام سنواتٍ، وكذلك بعض الأخوات؛ فلابُدَّ أن نكون على وجَلٍ ولا نتعالى على خلق الله، ولا يتصوَّرُ أحدٌ أنَّ الخير الذي وصله إليه بحولهِ وقوتهِ !

فأنا أذكُرُ ذلك من باب التحذيرِ والمحبةِ؛ حتى لا نكون عونًا للشيطان على عباد اللهِ؛ فالشيطان اجتهد عليهم، ووصل بهم إلى هذه المرحلةِ؛ فلا نساعده، ونجعله ينتصر عليهم؛ بل نكون عونًا لهم على الشيطان بالكلمة الطيبة تارة، والابتسامة والرفق تارة، والدعاء لهم في السجود تارة؛ فالدعاء مهم جدًّا؛ وقد ثبتَ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، إِلَّا قَالَ الْمَلَكُ: وَلَكَ بِمِثْلٍ** »[(١)]؛ فلعلك تدعو لهم دعوةً تنجيهم بها، ولك بمثلها بإذن الله .

---

(١) أخرجه مسلمٌ (٢٧٣٢).

والمجادلةُ بالتي هي أحْسَنُ:

فإذا كان هناك جدالٌ سوف يؤدي إلى خلافٍ ومشاكلَ وسبٍّ وتراشقَ؛ فلا تجادل، كشخصٍ معاندٍ لا يريد قبولَ كلمةٍ منك، ويرى أنه على صوابٍ، ومهما حاولتَ معه لا فائدة؛ فاتركه وادع الله بهدايته، قال تعالى: ﴿ **لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء**﴾ [البقرة:٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [المائدة:١٠٥] .

ولا تلْزِم نفسَك أن يقْتَنِعَ بما تقولُهُ؛ فاللهُ تعالى أمرنا أن نجادلَ المخالف بالتي هي أحسن، بالحكمة، وبالعلم، والآية، والحديث، مع هدوء النفس؛ فإذا اقتنع فالحمد لله، وإذا لم يقتنع؛ فقد بلَّغت الرسالة، وليس عليك هداهم بعد ذلك البلاغِ؛ فهداية التوفيقِ للعمل بيدِ الله وليست بيدك، لماذا؟

الهداية نوعان:

هداية توفيق، وهداية إرشاد؛ فهدايةُ التوفيقِ لا يملكُهَا الدَّاعي لأحدٍ، قال تعالى: ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ [القصص:٥٦]، فالواجبَ الذي عليه هو هدايةُ الإرشاد وهي التي قال تعالى عنها: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ [الشورى:٥٢]، فهدايةُ التوفيق مِلْكٌ لله عزَّ وجلَّ، فمن أراد أن يهديَهُ هداهُ، وإذا لم يُرِدْ؛ فهذه حكمةُ الله فيهِ.

فلكي ندعُوَ – كما ذكرنا – نحتاجُ إلى هذه الثلاثة:

حكمة، وموعظة حسنة – برفقٍ ولينٍ –، **وجدالٍ بالتي هي أحسن**، ولكنْ هذه الثلاثة تحتاج إلى علمٍ؛ فكيف تستطيع توصيلَ الحُكْمِ الشرعي وأنت غيرُ مُلِمٍّ به؟! كشخصٍ لا يعلم – مثلاً – أدلة وجوب زكاة عروض التجارة، ويريد إقناعَ غيرهِ بوجوبها؛ فلن يستطيع، وسوف يقنعُهُ بالحميَّة! لأنه ليس معه دليلٌ، وسيجادل، ويتحوَّلُ الأمر إلى معركة !!

أو كشخصٍ يقول: البنوك حلال، وفوائد البنوك حلال !! فتردُّ وتقول: لا، هي حرامٌ، وتناظرُهُ، ولكن على أيِّ أساسٍ؟ هل تعلَّمتَ أحكام الربا؟ ولماذا البنوك حرام؟ هل علمت ما هي علة الربا قبل المناظرة؟ أم لا؟! فإذا لم تَعْلَم؛ بلغ الخير لكن لا تناظر ؛ لأنَّهُ لابُدَّ من العِلْمِ.

أو كشخصٍ يجلس أمامه أحدُ النصارى ويقولُ: عيسى ابن الله ! وهو ليس معه أدلةُ التوحيد، وأدلةُ إعجاز القرآن، وأدلةٌ تُبيِّنُ فسادَ كتابهم المقدَّس؛ فكيف يجادلُهُ ؟!! فيمكن أن يغلبَهُ (المبطلُ) في المناظرةِ؛ ليس لأنَّهُ على صواب، ولكن لأنَّ (المحقَّ) ليس معه علمٌ كافٍ يردَّ به عليه.

فلابُدَّ من التحصُّن والتسلُّح بالعلم قبل المناظرة؛ حتى لا يظن المخالفُ أنَّه على حقٍّ؛ لأنه لو ظن ذلك؛ فهذا هدم للدين؛ فليست القضية خروجك من المناظرة مهزومًا، ولكن القضية أنك تهدُم الدين بذلك؛ فلو قام من أمامك على أنَّهُ على حقٍّ، ولم تستطع الانتصار عليه بالأدلة؛ فهذا هدمٌ لشيء من الدين؛ سواء كانت المسألة متعلقةً بشخصٍ يريد الدخول في دين الإسلام، أو شخصٍ على معصيةٍ.